مؤسسة إنكي للدراسات والبحوث
Enki Foundation for Studies and Research

الأدراك الصيني للتحول نحو نظام دولي متعدد الأقطاب

(قراءة فكرية معاصرة)

م.م. ليث عصام العبيدي

عضو شبكة انكي للبحث العلمي

نجحت الصين في استئصال التحديات الداخلية، لتأمين الاستقرار السياسي لنظامها، وحماية السيادة الوطنية، وسلامة أراضيها، البالغة مساحتها ٩٫٤٢ مليون كيلومتر مربع. إضافة إلى تدعيم، وتسويق رؤيتها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، أكثر بكثير من تركيزها نحو توسيع نفوذها الخارجي. أما خارجياً، فقد ركزت مساعيها نحو استقرار الدول الإقليمية، والدليل صبرها الطويل المتجذر تجاه جزيرة تايوان، التي تُعد جزءً من سيادة أراضيها. كذلك تمكنت الصين من تمالك وضبط عدم عدوانها على جيرانها، ولم تسعى إلى غزوهم، أو احتلالهم، أي إنها حساسة وحذره للغاية بشأن سيطرتها على أراضي أي دولة إقليمية، وليس لها رغبة في توسيع أراضيها. هذا يعني أن أهدافها أقل توسعية، أو صدامية، أو حتى تُشكل تهديدا للمصالح الأمريكية، كما يسوقه صناع القرار الأمريكي. كذلك لم تدعو الصين للهيمنة، أو القيادة العالمية، واقتصر تأكيدها ومعارضتها للأعمال العدوانية في الخارج. هذه الرؤية الصينية تُهدد بعزل الولايات المتحدة عن شرق آسيا.

وطدت الصين وروسيا تعاونهما في قطاع الطاقة بصورة ملحوظة، مدفوعةً بدوافع جيوسياسية واقتصادية تهدف إلى ضمان استدامة العلاقات بينهما لعقود مقبلة. فقد عملت موسكو على تزويد بكين باحتياجاتها المتزايدة من الغاز الطبيعي الروسي المُسال، في الوقت الذي عززت فيه صادراتها عبر خطوط الأنابيب، ولا سيما مشروع «قوة سيبيريا ١»، مع خطط طموحة لإنشاء «قوة سيبيريا ٢» المتوقع اكتماله قريباً.

وفي المقابل، لم تُبدِ الصين معارضة للمساعي الروسية في تنويع أسواق صادراتها من الطاقة، نحو دول الشرق، إدراكاً منها لأهمية الحفاظ على شراكة متوازنة. ومع ذلك، تبقى بكين صاحبة اليد العليا في هذه العلاقة الثنائية، إذ أظهرت التزاماً أكبر في دعم روسيا اقتصادياً وعسكرياً، بما يضمن تأمين احتياجاتها من الطاقة للعقود القادمة، خصوصاً بعد تعثر الأسواق الأوروبية في التعامل مع موسكو، نتيجة العقوبات الأميركية، واندلاع الحرب في أوكرانيا، الأمر الذي سرّع من توجه روسيا شرقاً نحو الصين.

من جانبها، تعارض الولايات المتحدة بشدّة، تنامي نفوذ كلٍّ من الصين والهند، وعدد من الدول الآسيوية الأخرى، نتيجة اعتمادهم المتزايد على واردات الطاقة الروسية، المنخفضة التكلفة، ولا سيّما الغاز الطبيعي المُسال. إذ باتت موسكو تبيع منتجاتها الطاقوية بعملات الدول المستوردة، في خطوة تهدف إلى تقليص ارتباط تلك الدول بالأسواق والأسعار العالمية، وإضعاف هيمنة الدولار على تجارة الطاقة. وقد أدى هذا التوجّه إلى تراجع حوافز الصين والهند، باتجاه تنويع وارداتهم، عبر شراء منتجات الطاقة الأميركية، وهو ما اعتبرته واشنطن تهديداً لمصالحها الاستراتيجية. وردّاً على ذلك، لوّحت الولايات المتحدة بفرض عقوبات على بعض تلك الدول، في ظل مخاوف متزايدة من أن يؤدي استمرار هذا المسار إلى احتدام التنافس، وربما بلوغه حدّ المواجهة بين القوى الكبرى، لاسيّما وأن بكين ونيودلهي باتتا تضعان واشنطن في موقف حرج، لأنها تسعى إلى إبرام اتفاقيات تجارية معهما.

يبدو أن الولايات المتحدة أساءت فهم ما تريده الصين، وعملت على عزلها دبلوماسيا واقتصاديا، ومدعية لمواجهة قوة رجعية، تسعى إلى إزاحة الولايات المتحدة، والعمل بقوة لتوسيع أراضيها. لكن هذه السياسات لن تُجدي نفعا في بلد أكثر تركيزه الحفاظ على الوضع الإقليمي الراهن، واستقراره الداخلي. بينما الأجدر على الولايات المتحدة، النظر إلى الصين ليس كتهديد خطير، بل كمنافس طبيعي. ويمكن للمنافسة الصحية، إحداث التقارب في مجال التكنولوجيا، والأعمال الاقتصادية، ومجالات الطاقة النظيفة، وحماية البيئة...، كلها ممكن أن تكون مفيدة لكلاهما، دون الحاجة للمخاوف من اعتبار الصين، الطرف الذي يُهدد وجود الولايات المتحدة.

أن الرؤيـة الصينيـة تهـدف إلـى جعـل الولايـات المتحـدة، تسـتبدل سياسـاتها العدوانيـة العسـكرية، وعليهـا أن تتفهـم بأنهـا ليسـت القـوة العظمـى الأحاديـة العالميـة المهيمنـة، التـي عملـت لعقـود علـى توسيـع نفوذهـا، وأراضيهـا بقوة الحشـد العسـكري. إذا سـيطرت الصيـن علـى تايـوان، يمكنهـا ذلـك مـن توسيـع نطـاق وصولها إلـى الفلبيـن وفيتنـام. لكـن الصيـن أتقنـت رؤيـة الصبـر الاسـتراتيجي الطويـل الأمـد، لإزاحـة الولايـات المتحـدة مـن زعامـة العالـم، وتسـعى إلـى توسيـع نفوذهـا بشـكل كبيـر وهـادئ، لإعـادة تشـكيل النظـام العالمـي الجديـد، بالوسـائل الناعمـة. خاصـة وإن تركيـز الولايـات المتحـدة علـى الـردع العسـكري، والتهديـد، والاسـتعداد للحـرب، يُنـذر بنشـوء نـوع مـن المواجهـة العسـكرية التـي لا داعـي لهـا، ويزيـد مـن احتماليـة تصعيـد التوتـرات، مـع الصيـن بـدلاً مـن تخفيفهـا، والتـي تـؤدي حتمـاً إلـى صِـدام بيـن البلديـن.

هـذا يعنـي أن الصيـن لا تسـعى لاسـتبدال الولايـات المتحـدة باعتبارهـا القـوة العالميـة المهيمنـة، لكنهـا توظـف أخطـاء السياسـية الأمريكيـة لخدمـة مصالحـه، مثـل اسـتخدام الولايـات المتحـدة للتعريفـات الجمركيـة، وتهديـد بإجبـار حلفاؤهـا وأصدقاؤهـا، علـى تقديـم تنـازلات جمركيـة، مثلمـا حصـل مـع كنـدا والمكسـيك وأوروبا...لتقليـص عجزهـا التجـاري. بينمـا لـم نجـد فـي السياسـة الصينيـة، دوافـع ممـاثلاً بهـذا الحجـم، بـل أعلنـت الصيـن عـن تخفيضـات فـي الرسـوم الجمركيـة الصينيـة، علـى السـلع الأفريقيـة فـي حزيـران ٢٠٢٥، وزعمـت فـي أيلـول ٢٠٢٥، أنهـا سـتعزز الجهـود الراميـة إلـى إصلاح منظمـة التجـارة العالميـة، بمـا يعـود بالنفـع علـى النمـو الاقتصـادي للـدول الناميـة. هـذه الرؤيـة الصينيـة فـي المشـاركة، والتعدديـة القطبيـة، التـي تنبثـق مـن الاعتمـاد علـى الدبلوماسـية، بـدلًا مـن المواقـف العسـكرية، يُخفـف مـن التوتـرات ويُحـل المشـكلات العالميـة، التـي لا يُمكـن حـل أيٍّ مـن هـذه القضايـا العالميـة، عبـر نهـج الولايـات المتحـدة المُركـز غالبـاً، علـى الجانـب العسـكري.

كذلـك رؤيـة الصيـن تكمـن في التعدديـة، ولعـب الحوكمـة العالميـة دوراً أكبر، مثل أطلاقهـا مبـادرة الحـزام والطريـق، واسـتخدام نفوذهـا الاقتصـادي، كأداة لحشـد الدعـم الدولـي، هـي تطمـح لـدوراً، ونفـوذاً، سياسـياً أكبـر، انطلاقـاً مـن ثقلهـا الاقتصـادي المتنامـي عالميـاً. حتـى أنهـا لا تسـعى إلـى اسـتبدال الولايـات المتحـدة، أو إزاحـة دورهـا العالمـي، كقـوة عالميـة مهيمنـة، بـل تطمـح للمشـاركة، والتعـاون، والتنميـة،

بـدلًا مـن المواجهـة. والحفـاظ علـى النظـام الدولـي القائـم علـى الأمـم المتحـدة بـدلاً مـن قلبـه. كمـا أنهـا لا تريـد أن تكـون القـوة الوحيـدة، المسـؤولة عـن هـذه المؤسسـات الدوليـة، رغـم انسـحابات الولايـات المتحـدة منهـا، مثـل منظمـة الصحـة العالميـة (WHO)، واتفاقيـة باريـس للمنـاخ، منظمـة الأمـم المتحـدة للتربيـة والعلـم والثقافـة (UNESCO)، والوكالـة الأمريكيـة للتنميـة الدوليـة (USAID).

كذلـك قـررت الصيـن، اتبـاع مسـارا أكثـر طموحـا بكثيـر، وعرضـت خططهـا بوضـوح فـي اجتمـاع (منظمـة شـنغهاي للتعـاون) فـي أيلـول ٢٠٢٥. واسـتضافت المنظمـة الاقتصاديـة والأمنيـة الإقليميـة، والتقـى الرئيـس الصينـي شـي جيـن بينغ، مـع الرئيس الروسـي بوتيـن، ورئيـس الـوزراء الهنـدي مـودي، والزعيـم الكـوري الشـمالي كيـم جونـغ أون. والتقـى بـ ١٨ زعيمـا مـن جميـع أنحـاء القـارة الأوراسـية. وتـرأس الرئيـس شـي عرضـا عسـكرياً ضخمـا فـي بكيـن، لإظهـار ترسـانة الصيـن السـريعة النمـو. يتضـح إن النظـام الدولـي، الـذي بنتـه الولايـات المتحـدة، وحافظـت عليـه لعقـود، يقتـرب مـن نهايتـه، ومـا يليـه قابـل للتغييـر. ويبـدو أن الصيـن تـرى، أن الفرصـة سـانحة، لتشـكيل عالـم متمركـزاً حولهـا، أقتصاديـاً وسياسـياً، دون الحاجـة منهـا لمواجهـة الولايـات المتحـدة، بشـكل مباشـر مـن خلال التحـرك بحـزم، فـي المناطـق التـي تخفـق فيهـا سياسـات الولايـات المتحـدة.

كذلـك يسـتمر الصـراع الأمريكـي الصينـي علـى التكنولوجيـا، والـذي اسـتمر علـى مـدى العقـد الماضـي. إذ وسّـعت وزارة التجـارة الأمريكيـة نطـاق قائمتهـا التجاريـة السـوداء علـى الشـركات الصينيـة، علـى أمـل تقليـص النفـوذ التكنولوجـي الصينـي المتطـور بشـكل متزايـد. ومـن المفارقـات أن وقّـع الرئيـس الأمريكـي ترامـب فـي ٢٥ سـبتمبر٢٠٢٥، أمـراً تنفيذيـاً، يسـمح لتطبيـق (تيـك تـوك)، بمواصلـة العمـل فـي الـبلاد، مـع مراعـاة مخـاوف الأمـن القومـي، بعـد مـا أقـر الكونغـرس قانونـا يُحظـر تطبيـق (تيـك تـوك)!. هـذا يعنـي أن الولايـات المتحـدة قـد تخفـض مـراراً وتكـراراً، مـن شـأن الأمـن القومـي، لصالـح مصالحهـا الاقتصاديـة. مـن جانـب أخـر تـرى الصيـن فـي تمريـر هـذه الصفقـة والتخلـي عـن مُلكيتهـا للتطبيـق، فرصـة بالاحتفـاظ بنفـوذ أكبـر، بـدلًا مـن التصعيـد، وقطـع العلاقـات.

يتضـح ممـا سبـق، أن الصيـن تهـدف، إلـى ترسيـخ رؤيتهـا، ومكانتهـا، كمركـزٍ لعالـمٍ متعـدد الأقطـاب ناشـئ، وهـي تُقـدّم اسـتراتيجيةً دبلوماسـيةً جديـدةً، وأكثـر نشـاطا

لتحقيق هذا الهدف. فبدلًا من إجبار الولايات المتحدة على التخلي عن موقعها القيادي في النظام الدولي، أو قلب النظام القائم، تستغل الصين تنازل ترامب السريع والطوعي عن دور الولايات المتحدة. كما تُعزّز الصين نفوذها، ومكانتها، داخل المؤسسات الدولية القائمة، سعياً منها لتحويل مراكز ثقلها بشكلٍ نهائي نحو الصين. إذا نجحت الصين، فستُغيّر النظام الدولي جذرياً، وتكون مكانتها في مركز الصدارة، وتُقوّض نفوذ الولايات المتحدة، بالطرقٍ الناعمة، التي قد يصعب على الإدارات الأمريكية المستقبلية، عكس مسارها.